

رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذا فترقت فرقا
وكلٌّ ممجّب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه
أبدا لا يفتخر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح
جامع اشروط الأدلة (وان يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها
ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّد وتشمير في الطلب
وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم
ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور) والصواب لمن لم يتفرغ
لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب
المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من
الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال *

كتاب ذم الغرور

أن مفتاح السعادة التيقظ والفتنة . ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة .
والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا . وبقى في العمى
فأخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا . ولما كان الغرور أم الشقاوات . ومنبع
المهلكات . لزم شرح مداخله ومجاريه . وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه
ليحذر المرید بهد معرفته فيتقيه (فالوقوف من العباد . من عرف مداخل
الآفات والفساد . فأخذ منها حذره . وبني على الحزم والبصيرة أمره) *

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته ﴾

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَالْكِنَانِ كُمْ فَتَنَّمْ أَنْفُسِكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الآية كاف في ذم الغرور وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ الكيسُ من دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَمَنَّى عَلَى اللَّهِ ﴾ فالغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخذعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم * وأشد الغرور غرور الكفار . وغرور العصاة والفساق . فأما غرور الكفار (١) فقد أشير اليه في قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وعلاج هذا الغرور إما التصديق بالآيمان وأما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الآيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ وقوله ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وقوله ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فصدقوه وآمنوا به ولم يظالوه بالبرهان . ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك

(١) يدخل في الكفار الدهرية الطبيعية فهذا البحث والاحتجاج ينفعان في القامهم الحجر فليكن على بال منك فانه مهم جدا اه مختصره

الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق . وهذا ايمان العامة . وهو يخرج
من الغرور *

وأما المعرفة بالبيان والبرهان فإن تعرف فساد ما وسوس به الشيطان
من الغرور بالتبصر في دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فإنه أيضا يزيل الغرور
وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مريض لا يعرف دواء
عائته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبات
الفلائي فإنه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك
بالبراهين الطيبة بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي معتوه يكذبهم في ذلك
وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا
وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم
بقوله ولا يفتري في علمه بسببه . ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان
معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها
والمثابرين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول الى سعادتها وجدتهم خير
خلق الله وأعلام رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء
والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم . وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم
الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم
الاعتراف بأنهم من أهل النار فجدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء . فكما
أن قول الصبي والمعتوه لا يزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الأطباء
فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقتة الشهوات لا يشكك في صحة أقوال

رحمته ومغفرته وقد قال : أنا عند ظن عبدي بي (فالجواب) أن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال ﴿ الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعَدَ الْمَوْتَ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَعَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي ﴾ وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ يعني أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أفترى أن من استوَجِر على إصلاح أو ان وشرط له أجره عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستاجر كريم أفتراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً . وهذا للفرق بين الرجاء والغرة . قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال : هيهات هيهات . تلك أمانتهم يترجعون فيها . من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه *

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحاً ولم يترك المعاصي فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح بقر متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كئيس . فكذلك إذا آمن

وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه ويرجو أن يثبتته حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل الى المعاصي فهو كيتس . ومن عدا هؤلاء فهم المذرورون بالله ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ *

﴿ موضع الرجاء المحمود ﴾

فان قلت فأين موضع الرجاء المحمود فاعلم أنه محمود في موضعين * (أحدهما) في حق العاصي المنهك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يجمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مفرور *

(الثاني) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ الآيات *

فالرجاء الأول يجمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمر (فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في

العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركزنا إلى البطالة فهو
 غرّة) كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل ففتره الشيطان عن
 التوبة والعبادة وقال له لك رب كريم فهذا غرّة وعند هذا يجب أن يستعمل
 الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول إنه مع أنه غافر
 الذنب وقابل التوب شديد العقاب وأنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار
 أبد الآباد وقد خوفني عقابه فكيف لأخافه وكيف أعتبر به *

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث
 على العمل فهو تمنّ وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم
 على الدنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للأخرة فذلك
 غرور وقد كان السلف يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات
 ويكون على أنفسهم في الخلاوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين
 غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهما كهم في الدنيا واعراضهم عن
 الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا
 من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان
 هذا الأمر يدرك بالمني وينال بالهويناء فملى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم
 وحزنهم وقد قال تعالى ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ . ذَلِكَ لِمَنْ
 خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف
 لا يتفكر فيه متفكرا إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه *

﴿ بيان بعض أصناف المغترين ﴾

فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وأهملوا تنقذ الجوارح وحفظها عن المعاصي واعتبروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان لا يهذب مثلهم ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا ان العلم انما يراد لمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل وقد ورد فيمن لا يعمل بعلمه ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ فأى خزي أعظم من التمثيل بالحمار *

وفرقه أخرى أحكموا السلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمتحو عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب الملا وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾ فتمهدوا الأعمال وما تمهدوا القلوب والقلب هو الأصل إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء قبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة *

وفرقه اقتصروا على علم الفصيل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها

وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مفرورون من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم أما من العمل فقد قدمنا أولاً وجه الفرور فيه ومثالمه مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمها المرضى ولم يشتغل بشرحها واستعمالها أقترى أن ذلك يعني عنه من مرضه شيئاً هيات هيات . فلا بد من شربه وصبره على مرارته . على أنه بعد على خطر من شفائه *

وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال : انهم ثقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضاً علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فان الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة المستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى ﴿ فَالْوَالَا نَفَرًا مِّنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم *

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أخلاق النفس والزهد والاخلاص وهم مفرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله لحرصهم

على السمعة وحسدكم لمن يتقدمهم من أترانهم وغيظهم على من ينشئ على
 معاصريهم وجمعهم لحطام الدنيا فهؤلاء أعظم الناس غرّة *
 وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون
 الكلمات ويؤثّونها من غير إحاطة بمعانيها ولو في الأسواق مع الجلساء
 وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار
 مغفوراً له من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام وغرور هؤلاء أظهر من
 غرور من قبلهم *

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغترروا به وزعموا
 أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا
 عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها كمن ضيع عمره في تصحيح مخارج
 الحروف في القرآن واقصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف
 المعاني وإنما الحروف أدوات فالأب هو العمل والذي فوقه كالتشعر للعمل
 فالتقانون به مخترون إلا من اتخذه منزلاً فلم يرج عليه إلا بقدر حاجته
 فتجاوزه حتى وصل إلى باب العمل فحمل نفسه عليه فصفاها من
 الشوائب والآفات *

﴿ غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة ﴾

منهم فرقة تعمقوا حتى خرجوا إلى المدوان والسرف كالذي يغلب عليه
 الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضي المحكوم بطهارته في الشرع ويقدر
 الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء

إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضحاً عمر رضى الله عنه بما في
جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال
مخافة من الوقوع في الحرام *

ومنهم فرقة غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى
يعقد نية صحيحة - على زعمه - وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون
صفة التكبير أشدّة الاحتياط فيه - على زعمهم - يفعلون ذلك في أول الصلاة
ثم يفعلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويفترون بذلك ويظنون
أنهم على خير عند ربهم *

وفرقة تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار
من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والطاء
وتصحیح المخارج في جميع صلواته لايهمه غيره ذاهلاً عن معنى القرآن
والإلتفاظ به وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع القرور فإنه
لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به
عادتهم في الكلام . ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان
وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة ويتأق في مخارج الحروف
ويكررها ويبيدها مرّة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة
ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بمقتد العقل *
وفرقة اغتروا بقراءة القرآن فيهدمونه هدرمة وربما يهتمونه في اليوم والليله
حرّة ولسان أحدهم يجرى وقلبه يتردد في أودية الأمانى إذ لا يتفكر في

معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه . فهو مفرور يظن أن المقصود من انزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاة كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مفرور نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه . وحفظه يراد لمعناه . ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمآنيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويفتر باستلذاده ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته فليمتد قلبه . وايش ربه *

وفرقه اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون أسنتهم عن الغيبة وخواطهم عن الرياء وبواطهم عن الحرام عند الإفطار وأسنتهم عن الهديان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور *

وفرقه اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ثم يحضر البيت بقاب ملوث بذميم الأخلاق

لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور *
 وفرقة جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم
 يظهرُوا ظاهريهم وباطنيهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه
 ان فلانا مجاور بمكة وتراه يقول قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ثم أنه
 قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء
 وجملة من المهلكات كان عنها بهزل لو ترك المجاورة ولكن حب
 المحمدة وأن يقال أنه من المجاورين الزمه المجاورة مع التضمن بهذه الرذائل
 فهو أيضاً مغرور *

وفرقة زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن
 بالمسجد أو المدارس وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب
 بالرياسة والجاه أما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمرين
 وباء بأعظم المهلكين فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم
 يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد
 وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبها ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق.
 وقد يؤثر الخلو والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتناول بذلك على الناس
 وينظر إليهم بعين الاستحقار ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث
 القلوب وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده فهو
 راغب في حمد الناس وهو من ألد أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد في
 الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فرما لا يخلو عن توقيير الأغنياء وتقديمهم

على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين
الى غيره وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفي العباد
من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته
وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات ويتوهم أنه مغفور له
لعملة الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وقد يظن أن العبادات الظاهرة
تترجح بها كفة حسناته وهيات وذرة من ذى تقوى وخالق واحد من
أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا
المغرور من سوء خالقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء
فاذا قيل له أنت من أتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك
وصدق به وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا
يدرى أن ذلك لجهل الناس بجنائث باطنه *

وفرة حرصت على النوافل ولم يعظم اعتمادها بالفرائض ترى أحدهم
يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة
لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى
الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ﴿ مَا تَقَرَّبَ الْمُتَّقِرُونَ إِلَىَّ بِمِثْلِ آدَاءِ
مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ ﴾ *

﴿ غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة ﴾

ففرقة منهم اغتروا بالزنى والهيفة والمنطق فيجلسون على السجادات مع
إطراق الرأس وادخاله في الجيب كالتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض

الصوت في الحديث ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب
 وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل
 منازل التصوّف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها*
 وفرقة ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال
 والملازمة في عين الشهود والوصول الى القرب . ولا يعرف هذه الأمور
 إلا بالأسمى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطائّات كلمات فهو يردّها
 ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوّلين والآخريين . فهو ينظر الى الفقهاء
 والمفسرين والمحدّثين وأصناف العلماء بهين الازدراء فضلاً عن العوام
 حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم ويتلقف
 منهم تلك الكلمات المزيّفة فيردّها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر
 الأسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ويقول أنهم عن الله محجوبون
 ويدّعي لنفسه الوصول الى الحق وأنه من المقرّبين وهو عند الله من
 المناقنين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين . لم يحكم قط علما . ولم
 يهذب خلقا . ولم يرتب عملا . ولم يراقب قلبا . سوى اتباع الهوى وتلقف
 الهديان وحفظه *

وفرقة وقعت في الاباحة وطوا بساط الشرع ورفضوا الأحكام
 وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملي فلم أتعب
 نفسي وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لا وزن لها وانما النظر الى القلوب
 وقلوبنا والهة بحب الله وواصله الى معرفة الله . وانما نخوض في الدنيا

بأبداننا وقلوبنا ما كفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها . والاباحية من الكفار المارقين .
نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين *

وفرقة ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فنصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال فيجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثير أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم . وما باعهم إلا الرياء والسمعة *

وثمة فرق آخر لا يحصى غرورها . والفرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول *
* غرور أرباب الأموال *

والمفترون منهم فِرَق ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخذ ذكركم أو يذبح صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد يكون بناؤها من جهات محظورة تعرضوا لسيخط الله في كسبها وكان الواجب ردها إلى ملائكتها إما بأعيانها وأما رد بدلها عند العجز . وقد يكون الالم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لا يظهر ذلك للناس فيكون غرضهم في البناء الرياء وجلب الشاء مع أن صرف المال الى من في جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل وأولى

من الصرف الى المساجد وزينتها . فما خف عليهم الصرف الى المساجد إلا
ليظهر ذلك بين الناس . وهناك محذور آخر وهو أنه قد يصرف المال الى
زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهى عنها لشغلا قلوب المصلين والمقصود
من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين فوبال
ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يفتربه ويرى أنه من الخيرات مع
أنه تعرض لما لا يرضى الله تعالى *

وفرقه ينفقون الاموال في الصدقات على المساكين ويطلبون به المحافل
الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر وافشاء المعروف . ويكرهون التصدق
في السرّ ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جنابة عليهم وكفرانا . وربما
يحرصون على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا
جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : (في آخر الزمان يكثر الحاج بلا
سبب . يهون عليهم السفر . ويبسط لهم في الرزق . ويرجعون محرومين
مساولين . يهوى بأحدهم بهيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه
لا يواسيه) وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال
قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي
درهم قال بشر فأى شيء تبتغي لحجتك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء
مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت
في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل
ذلك قال نعم قال اذهب فاعطاها عشرة أنفس مديون يقضى دينه . وفقير

يرم شعته . ومميل يحيى عياله . ومربي يتيم يفرحه . وان قوى قلبك تعطيتها
واحدًا فافعل . فان ادخالك السرور على قلب مسلم واغاثة اللهفان وكشف
الضرر واغاثة الضعيف أفضل من مائة حجة بمدح حجة الاسلام . قم فاخرجها
كما أمرناك . والا فقل لنا ما في قلبك فقال يا أبا نصر سرفى أقوى في قلبى .
فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له (المال إذا جمع من وسخ
التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال
الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين) *
وفرقة من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها
بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كقيام
النهار وقيام الليل وختم القرآن . وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى
على بواطنهم فهو يحتاج الى قومه باخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل
هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على
الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء . ومن قتله الحية متى
يحتاج الى دواء . ولذلك قيل لبشر أن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال
المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وانما حال هذا اطعام الطعام للجوع
والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه
مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء *

وفرقة غالبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ثم أنهم
يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء

من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أو من يحتاجون اليه في المستقبل للاستسخر
 في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون الى من يعينه واحد
 من الأكابر ممن يستظهر بحشمه ليتال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل
 ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله
 تعالى وهو قاجر إذ طلب بعبادة الله عوضاً من غيره . وغرور أصحاب
 الأموال لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور *

وفرقه أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذكر
 واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم
 على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن
 فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه .
 والرغبة محجودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل
 فلا خير فيها . وما يراد بغيره فإذا قصر عن الأداء الى ذلك الغير فلا قيمة
 له وربما يفتر بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كركة النساء فيبكي ولا عزم
 وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم
 أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وإنما
 مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري أو الجائع
 الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك
 لا يفتى عنه من مرضه وجوعه شيئاً فكذلك سماع وصف الطاعات دون
 العمل بها لا يفتى من الله شيئاً فكل وعظ لم يغير منك صفةً تغييراً يغير

أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا
فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيتك وسيلة لك كنت مفرورا *

(فان قلت) ما ذكرته من مداخل الفرور أمر لا يمكن الاحتراز منه إذ
لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات (قلت) الانسان إذا فترت
همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق وإذا صح
منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول
الى الغرض حتى أن الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جوار السماء
مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات
استسخرها الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لأنه همهم أمر
دنياه فلو أهمهم أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه ولما
تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا وليس ذلك بمحال لانه شيء لم يعجز عنه
السلف الصالحون ومن اتبهم باحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت ارادته
وقويت همته بل لا يحتاج الى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا
ونظم أسبابها *

(فان قلت) قد قربت الامر فيه مع أنك أ كثر في ذكر مداخل
الفرور فبم ينجو العبد من الفرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم
والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل فأعني به الفطرة الفريزية
والنور الأصلي الذي به يدرك الانسان حقائق الأشياء لأن أسامس
السعادات كلها العقل والكياسة . وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه ويعرف

الدنيا والآخرة . فاذا عرف ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله الى الله تعالى وينفمه في الآخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والتزوع الى الدنيا والجاه والمال (وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة . وهوى نفسه أحب اليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه التخلص من الغرور) فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها وآفاتمها فيتقيها ومن العادات اسرار المعاش وما هو مضطر اليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فان المانع من الله الصفات المدمومة في الخلق فيعلم المدموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المدمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يقلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها * نسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة *